رائــحة الــموت

ظـلام دامس موحش. سـكن الكـون وهـدأ، إلا من رائحـة كريهة تسللت إلى أنفه كادت أن تقتله.

اسـتيقظ من نومه مختنقاً. حاول أن يـضيء المصباح القريب منه. نسي أن الكهرباء مقطوعة، ليس هي فحسب، بل كل مقومات الحياة البسيطة أصبحت معدومة.

لم يسـتطع النهـوض من فراشـه إلا بصعوبـة بالغة، بحـث بيده عن "ولاعة" ليضيء بها آخر شـمعة في المنزل والمنازل القريبة والبعيدة منه، والتي لن تدوم طويلاً.

تتسارع ضربات قلبه، إذ توقع أن يسمع صوت الصواريخ أو مضاداتها، أو صوت الرصاص والمدافع، أو أن يحدث انفجار يدمر الجزء المتبقي من الحي، الذي تدمرت أجزاء كبيرة منه، وما تزال الجثث لم تبرح مكانها.

مدينة ملغومة بالمعسكرات، وبطون جبالها مخازن لأسلحة صدئة.

هرب مَنْ بقي حياً من السكان في الحي والأحياء المجاورة. ظل هو وحيداً في هذا المكان المُوحَش الذي صار لا يعرفه ولا ينتمي إليه.

ظل منسياً، وحيداً، مُصرّاً على عدم الذهاب إلى مكان آخر، في انتظار عودة ابنته وزوجها، اللذين ذهبا إلى الضفة الأخرى من الوطن للعلاج من العقم، قبل بدء الحرب بأيام معدودات.

يتذكر صوتها عبر الهاتف في آخر حديث بينهما، وهي تبكي بصوت حزين متقطع:

– الموت هنا يا أبتِ! الموت في كل مكان! جثث في الشوارع، جدران البيوت مصبوغة بدماء الأبرياء، السماء تمطر وابلاً من رصاص... أتيت إلى هنا لأحمل الحياة في أحشائي، فلم أجد سوى الموت، الموت بالمجان يا أبتِ! الموت في كل مكان!

كلما تذكّرها ازدادت الرائحة الكريهة في أنفه.

الرصاص والمدافع تدوي في أذنيه. وصوتها المرتجف خوفاً ورعباً...

سمع ضربة قوية خارج غرفته. تسارعت دقات قلبه بسرعة أكبر.

صرخ:

- حمداً لله! عادت ابنتي.. عادت روحي إليَّ!

حاول أن يسمع خطوات أقدامها المتسارعة. خرج إليها بقدمين تحملانه كرهاً.

يناديها، فلا يسمع إلا صدى صوته. فتش عنها. استمر في البحث.

قادته رائحة الموت إلى غرفتها. فتح الباب بخوف وحذر، بيدين مرتعشتين، فلم يجد سوى: سرير مهجور، وشباك مكسور مفتوح على مصراعيه، وساعة حائط عقرباها يزحفان ببطء شديد.

2015 /6 /27